الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة في عين واحد
واحد منها فيقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقى جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة
وكان من صفر فقال يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسر وننزل من القرآن ما هو شفاء
ورحمة للمؤمنين ما هو في تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى ومن
للبيان فإن كله كذلك وقيل إنه للتبعيض والمعنى أن منه ما يشفي من المرض كالفاتحة وآيات
الشفاء وقرأ البصريان ننزل بالتخفيف ولا يزيد الظالمين إلا خسارا لتكذيبهم وكفرهم به
وإذا أنعمنا على الإنسان بالصحة والسعة أعرض عن ذكر الله تعالى ونأى بجانبه لوى عطفه
وبعد بنفسه عنه كأنه مستغن مستبد بأمره ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار لأنه من عادة المتكبرين
وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان هنا وفي فصلت وناء على القلب أو على أنه بمعنى نهض وإذا
مسه الشر من مرض أو فقر كان يؤوسا شديد اليأس من روح الله قل كل يعمل على شاكلته
قل كل أحد يعمل على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة
لمزاج بدنه فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا أسد طريقا وأبين منهجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة
والعادة والدين ويسألونك عن الروح الذي يحيى به بدن الإنسان ويدبره قل الروح من أمر ربي
من الإبداعيات الكائنة بكن من غير مادة وتولد من أصل كأعضاء جسده أو وجد بأمره وحدث
بتكوينه على أن السؤال عن قدمه وحدوثه وقيل مما استأثر الله بعلمه لما روي أن اليهود قالوا لقريش
سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي وإن
أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم في التوراة
وقيل الروح جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل خلق أعظم من الملك وقيل القرآن ومن أمر ربي معناه
من وحيه وما أوتيتم من العلم إلا قليلا تستفيدونه بتوسط حواسكم فإن اكتساب العقل للمعارف
النظرية إنما هو من الضروريات المستفادة من إحساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد علما
ولعل أكثر الأشياء لا يدركه الحس ولا شيئا من أحواله المعرفة لذاته وهو إشارة إلى أن الروح مما لا يمكن
معرفة ذاته إلا بعوارض تميزه عما يلتبس به فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى عليه الصلاة
والسلام في جواب وما رب العالمين بذكر بعض صفاته روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك

قالوا

قالوا أنحن مختصون بهذا فقال بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك ساعة تقول ومن يؤت
الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما في الأرض من
شجرة أقلام وما قالوه لسوء فهمهم لأن الحكمة الإنسانية أن يعلم من الخير والحق ما تسعه القوة
البشرية بل ما ينتظم به معاشه ومعاده وهو بالإضافة إلى معلومات الله تعالى التي لا نهاية لها قليل
ينال به خير الدارين وهو بالإضافة إليه كثير ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك
اللام الأولى موطئة للقسم ولنذهبن جوابه النائب مناب جزاء الشرط والمعنى إن شئنا ذهبنا
بالقرآن ومحوناه عن المصاحف والصدور ثم لا تجد لك به علينا وكيلا من يتوكل علينا
استرداده مسطورا محفوظا إلا رحمة من ربك فإنها إن نالتك فلعلها تسترده عليك و
يجوز أن يكون استثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا
بإبقائه بعد المنة في تنزيله إن فضله كان عليك كبيرا كإرساله وإنزال الكتاب عليه وإبقائه في
حفظه قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في البلاغة وحسن
النظم وكمال المعنى لا يأتون بمثله وفيهم العرب العرباء وأرباب البيان وأهل التحقيق وهو
جواب قسم محذوف دل عليه اللام الموطئة ولولا هي لكان جواب الشرط بلا جزم لكون الشرط ماضيا
كقول زهير ∴ وإن أتاه خليل يوم مسألة ∴ يقول لا غائب مالي ولا حرم ∴ ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا ولو تظاهروا على الإتيان به ولعله لم يذكر الملائكة لأن إتيانهم بمثله لا يخرجه عن كونه
معجزا ولأنهم كانوا وسائط في إتيانه ويجوز أن تكون الآية تقريرا لقوله ثم لا تجد لك به علينا وكيلا
ولقد صرفنا كررنا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان للناس في هذا القرآن من كل مثل
من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعا في الأنفس فأبى أكثر الناس إلا كفورا إلا جحودا
وإنما جاز ذلك ولم يجز ضربت إلا زيدا لأنه متأول بالنفي وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من
الأرض ينبوعا تعنتا واقتراحا بعدما ألزمتهم الحجة ببيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات
إليه وقرأ الكوفيون ويعقوب تفجر بالتخفيف والأرض أرض مكة والينبوع عين لا ينضب ماؤها
يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء إذا زخر أي كثر أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر
الأنهار خلالها تفجيرا أو يكون لك بستان يشتمل على ذلك أو تسقط السماء كما زعمت علينا

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)